

## أثر السياقات السوسiolسانية في ممارسات التعدد اللغوي الأسري ونقله<sup>1</sup>

فيليب بلانشي (2013)

يرتكز هذا الإسهام على خبرة بحثية شخصية وجماعية، ويهدف أساسا إلى أشكلة نقل اللغات داخل الأسر المهاجرة الجزائرية في فرنسا من منظور سوسiolساني وفق الأدوات النظرية للتحليل الغلوطوبوليطيقي<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> مقال نشر بالفرنسية في مجلة إنسانيات، عدد 77-78، جويلية - ديسمبر 2017. Effet des contextes sociolinguistiques sur les pratiques et les transmissions de plurilinguismes familiaux.

(<sup>1</sup>) جامعة رين 2، 35238، رين، منطقة بروطان، فرنسا.

(<sup>2</sup>) مخابر PREFICS، 35238، رين، منطقة بروطان، فرنسا.

(<sup>3</sup>) مخبر LISODIP، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، 16000، الجزائر.

<sup>2</sup> [هامش من المترجم] مصطلح glottopolitique الذي عرّيناه هنا بمفردة "غلوطوبوليطيقي"، اقترحه لويس غيسبان Guespin Louis وجون بابتيست مارسيليزي Jean-Baptiste Marcellesi، ويشير إلى: "تسيير الممارسات اللسانية"<sup>(1)</sup> وهو يعني عموما "مختلف المقاربات التي يُقيمها مجتمع ما حول فعله الموجّه نحو اللغة سواء بشكل واع أو غير واع."<sup>(2)</sup> يأخذ هذا الفعل الموجّه أشكالا مختلفة كالتقعيد أو المنع أو الترويج، أو الاحتفاء أو الممارسة أو إنهاء الممارسة أو غيرها من الأفعال الصادرة عن تمثلات الأفراد والمجتمع والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية للدول، شاملا بهذا اللغة والكلام والخطاب. كما يأخذ أنواعا مختلفة من التسيير، التسيير الليبرالي libéral أو التسيير الموجّه dirigiste والتسيير الذاتي Auto-gestionnaire. ولقد ترجمنا هذا المصطلح سابقا بالسييلة وهو نحت من المصدر الاشتقاقي للمفردتين المكونتين لكلمة glottopolitique وهما glotto التي تعني اللغة وpolitique التي تعني السياسة، غير أننا فضّلنا في هذا العمل التبسيط والتعريب. تكمن أهمية مفهوم الغلوطولوليطيقي في كونه يأخذ بعين الاعتبار جميع الفواعل والقوى المتصارعة والمتسندة في إطار أي سياسة لغوية، فلمفهوم السياسة اللغوية Politique linguistique – وبشكل أقل مفهوم الهيئة اللغوية Aménagement linguistique أو التخطيط اللغوي Planification linguistique – بعدُ عمودي تأخذ السلطات الرسمية وفقه عموما مكانة عليا ووظيفة تأثيرية كبرى، بل وأحادية في

يمثل إعطاء الأولوية للسياقات السوسiolسانية وآثارها في ممارسات اللغوية ونقل موارد اللغة داخل الأسرة شرطا أساسيا ولازما للدراسة. بعد تقديم إسهامات التصور الغلوطوبولييطيقي للممارسات السوسiolسانية، سأركز بداية على تحليل تأثير الطابع المهيمن للسياسات اللغوية التي انتهجتها الدول المعنية بالدراسة. كما سأقصي ثانيا آثار هذه السياسات، ودور التمثلات المتعلقة بها، في الأنواع المختلفة لنقل اللغات والممارسات اللسانية، كما سأسلط الضوء أيضا على مسألة الاستمرارية والانقطاعات المتعلقة بالسياقات الماكروسوسiolسانية والممارسات الميكروسوسiolسانية<sup>3</sup>، وخصوصا في الأسر. سأوضح هذه النقاط العامة باعتماد مثال متميز قصد إثارة الانتباه، وهذا من خلال دراسة حديثة خاصة بنقل اللغة الأولى داخل أسرتين مهاجرتين من الأرجنتين.

### ما المقاربة السوسiolسانية؟

في المقاربة السوسiolسانية، كل ما هو اجتماعي هو لغوي، وكل ما هو لغوي راجع إلى دينامية اجتماعية، وفي المستوى الأنثروبولوجي، تُعدّ الممارسات اللغوية التي نطلق عليها تقليديا وبشكل اختزالي اسم اللغات وقائع اجتماعية كلية، أي أنها موجودة بشكل كبير في المجتمع وأن لا شيء مما يحدث فيه بعيد عن الطابع اللغوي ولو بدرجات متفاوتة. بالمقابل، ترتبط اللغة ارتباطا مباشرا وبشكل تلازمي بمجموع الممارسات

---

الغالب، وهذا مخالف لبعض الممارسات الفعلية التي يأخذ فيها الفواعل غير الرسميين (الأفراد) أو الفواعل شبه-الرسميين (اللوبيات والتكتلات الشعبية والشخصيات المؤثرة) مكانة أعلى وقيمة أكبر من الهيئات الحكومية. إذن إن العلاقة بين الفواعل الغلوطوبولييطيقيين هي جدلية تشغل بشكل دينامي ومتطور يختلف في الزمان والمكان.

Guespin, L, (1985) « Introduction. Matériaux pour une glottopolitique ». In *Problèmes de glottopolitique, Cahiers de linguistique sociale*, Rouen, Presses Universitaire de Rouen, n° 7, p.23.

Guespin, L ; Marcellesi, J-B. (1986) « Pour la glottopolitique ». In *Glottopolitique*, Langages, Paris, Larousse, n°83, p.5.

<sup>3</sup> [هامش من المترجم] الماكروسوسiolسانية أو السوسiolسانية الكلية تُعنى بدراسة الأنظمة العامة والتنوعات اللغوية بشكل شامل في إطار مجموعة لسانية أما الميكروسوسiolسانية أو السوسiolسانية الجزئية، فتهتم بتناول المتون والسلوكات المحدودة (الفردية أو بين الأفراد في نطاق محدود جدا) بالملاحظة والتحليل.

الاجتماعية، كما أنّ المجتمع موجود في كل شيء خاص باللغة. هذا ما يجعلنا نؤكّد مجدداً، بعد ويليام لابوف William Labov ولويس-جان كالفي Louis-Jean Calvet، أنّ الظواهر اللغوية وممارستها هي قبل كل شيء ظواهر وممارسات اجتماعية، على الرغم من الوجود الثانوي للجوانب اللغوية والتقنية (الأصوات، الصوتية، المورفولوجيا...) والتي تخضع للسياقات الاجتماعية التي تحدّدها. لذا لا نعتبر اللغات معايير نستخدمها، ولكنها ممارسات اجتماعية في المقام الأوّل نقوم من خلالها ببناء المعايير.

بهذا تكون العلاقة التراتبية بين ما هو اجتماعي وما هو معياري معكوسةً في المقاربة السوسiolسانية. بالنسبة لنا، ليست السوسiolسانيات اختصاصاً بينياً ولا نظرة اجتماعية للغة ولا اختصاصاً مستنداً إلى اللسانيات. إنها نظرية شاملة تعرض طرائق بديلة، وتتيح دراسة الممارسة اللغوية بطريقة مختلفة، انطلاقاً من منطلق اجتماعي تُكرّس بالتالي "لسانيات بديلة" Alter-linguistique، على حد تعبير ديديه دو روبيار Didier de Robillard.

واحدة من الأسئلة المركزية التي تطرح نفسها حينما ننظر للممارسات اللغوية يعيها ممارسات اجتماعية هي مسألة التعددية اللغوية Pluralité linguistique التي تحيل إلى حقل أوسع من ذلك الذي يحمل اسم "التمايز"<sup>4</sup> اللغوي « Diversité linguistique ». هذه التعددية اللغوية لا تشير إلى اللغات المتجاورة فحسب، بل هي منفتحة أيضاً على التنوع الداخلي للغات وعلى جميع الممارسات وأشكال اللغة الواحدة. هذه هي الحال في اللغة الفرنسية، التي يوجد فيها تعددية كاملة وعدد كبير من التنوعات وطرائق متعددة لممارسة اللغة تختلف في الزمان والمكان، بحسب سياقات الاتصال والأوساط الاجتماعية والأفراد. لمفهوم التعددية اللغوية ميزة

---

<sup>4</sup> [هامش من المترجم] تُترجم عادة مفردة diversité بالتنوع، وهي ترجمة ملائمة لحد كبير، غير أن وجود مفهوم آخر هو Variation يترجم بنفس اللفظة يدفعنا إلى ترجمتها بالتمايز. ولئن كان مصطلح التعدد قريباً من مفهوم التنوع، فإننا نؤثر لنفس الأسباب استعمال مصطلح التمايز، مخصّصين لفظاً التعدد لترجمة مصطلح Pluralité.

احتوائه التباين اللغوي الخاص بمصادر الاتصال، والعلاقات الإنسانية والأشكال المختلفة لبناء الهوية.

يُطرح في هذا المستوى السؤال الآتي: كيف يبني الأفراد والمجتمعات العلاقات جماعيا وفرديا، وكيف يكونون موجودين في العالم، وكيف يعيشون معا، وبينون كينونتهم الاجتماعية انطلاقا من موارد غير مشتركة كليا أو جزئيا وأحيانا مختلفة نسبيا؟ بعبارة أخرى، كيف يمكننا استخدام هذه الموارد المتنوعة للغاية والمتملصة كثيرا للتواصل وبناء علاقات إنسانية بين أفراد هم -بمقتضى الطبيعة الإنسانية- مختلفون بالضرورة؟

تتطلب معالجة قضايا الممارسات اللسانية ونقل اللغات والتنقل Mobilité في إطار الأسر مراعاة مسألة التعددية. بالمقابل، يؤدي إهمال هذه التعددية إلى إهمال جزء كبير من الممارسات والموارد التي تؤلف هذه الممارسات اللسانية وهذا النقل للغات. لقد كرست اللسانيات الكلاسيكية اللغات على أنها أنظمة متجانسة مصحوبة، ثانويا، بتنوع<sup>5</sup> Variation قد يكون إشكاليا نوعا ما. فاستندت هذه الدراسات المقترحة آنذاك، كما هو الأمر في مواقف نعوم شومسكي Chomsky Noam الذي وضع المبادئ الأساسية للنحو التوليدي، وفق صنفاء لغوية موحدة تتصور لغات ما بأنها متجانسة بشكل مثالي ونظري، ومستخدمه بشكل مثالي أيضا من قبل متكلمين أحاديي اللغة في مجتمع موحد تماما. يعني رفض التنوع وتأكيد تجانس اللغة إبعاد البعد التعددي للغات الذي يميز المجتمع البشري ومقاومة فتح مجال اللسانيات للدراسات القائلة بتعددية الممارسات والموارد. يُنظر للغة من لدن مؤيدي هذا الاتجاه على أنها متجانسة،

<sup>5</sup> [هامش من المترجم] تفرق السوسيولسانيات بين Variation وVariété. لقد ترجمنا الأولى بالتنوع (وجمعها تنوعات) وترجمنا الثانية بالأقنون أو التنوعية (وجمعها تنويعات)، لأسباب لا يسعنا هنا أن نشرحها ولا أن نفرق بين المصطلحين مفهوميا. لإدراك الفرق بين مفهوم التنوع ومفهوم التنوعية يُنظر مواد: التنوع Variation (ص. 83-84)، والمقاربة التنوعية Approche variationniste (ص. 283-287)، والتنوعية السفلى Variété basse (287-288) والتنوعية العليا (288-289). هذه المواد معروفة على التوالي من قبل: ماري لويز مورو Marie-Louise Moreau وبير تيبو Pierre Thibault وميشيل بينيامينو Michel Beniamino ولويس-جان كالفي Louis-Jean Calvet. يُنظر: Moreau, L. (dir.) (1997) *Sociolinguistique : les concepts de base*, Liège, Mardaga.

وهذا مناقض لطبيعة الممارسات اللسانية ذاتها، ذلك أنه لا وجود للتنوع في هذه الحالة إلا بشكل هامشي.

شهدنا حقا مع ظهور السوسiolسانيات نوعا من الثورة الكوبرنيكية، إذ ظهرت أمور مخالفة تماما لما كان رائجا في اللسانيات الكلاسيكية. فعلا، إن المهم في المنهج السوسiolساني هو تسليط الضوء على التنوع والتعددية والتباين (أو اللاتجانس). على هامش هذا، توجد اتجاهات تحاول التقريب بين أفراد واتجاهات تسعى إلى الأَجْدَسَة Homogénéisation (خلق التجانس) في سياقات معينة تُمكن هؤلاء الأفراد الذين يعيشون معا من القيام بنفس الممارسات اللسانية. تَجتمع بعض المجموعات البشرية على اختراع لغات معيارية/موحدة بشكل مصطنع من خلال إنتاج معايير بوضع النحو وصناعة المعاجم. يحصل هذا كله انطلاقا من التعددية اللغوية للوصول إلى بناء المعايير بشكل مصطنع، رغم أن هذه المعايير ليست سوى مجموعة من التقنيات اخترعها البشر، وهي غير متوافقة مع الممارسات الناتجة عن العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمعات، فهذه المعايير الاصطناعية خاصة بممارسات هي في جوهرها غير متجانسة، ومتعددة ومتجددة باستمرار<sup>6</sup>.

تجدر الإشارة أخيرا، لإنهاء هذا الإطار النظري العام، إلى أن المقاربة السوسiolسانية تمكّن من تحليل المجتمع. هذه المقاربة تسمح، بطبيعة الحال، بدراسة الممارسات اللغوية من الناحية الاجتماعية، لكنها تسمح أيضا بتحليل الممارسات الاجتماعية من وجهة نظر لغوية. حينما ننظر للموارد اللغوية والكيفية التي يصنفها بها البشر، ويضعون لها تراتيبات، ويُلقونها بجماعات وأفراد، يمكننا أن نرى

---

<sup>6</sup> [هامش من المترجم] نلاحظ هنا مفارقتين واضحتين في المعيار: المفارقة الأولى تتجلى في الانطلاق من الخاص إلى العام من أجل التعميم وليس التخصيص، فيتحول العام الذي يخضع للخاص مبدئيا عند التقعيد، إلى مُخضَع لهذا الخاص الذي أعطاه الوجود. تأخذ القاعدة وفق هذا بعموم الاستعمال ويُهمَل خصوصه، على الرغم من أن الاستعمال في أساسه خاص والعموم اصطناعي وافتراضي وإيديولوجي. وتتجلى المفارقة الثانية في استبدال ما هو استقرائي Inductif بما هو استنباطي Dédutif إلى درجة الاعتقاد أن الثاني هو نفسه الأول، فتصبح القاعدة المصطنعة بديلا للممارسة الطبيعية، لتصير في نهاية الأمر، بنوع من التعسف، طبيعية. عند أصحاب المعيار، أكثر من الممارسة السليقية. إذن إن المعايير عادة سلطوية وجامدة لا تقبل البدائل والتغيرات، على الرغم من أن الممارسات الإنسانية متنوعة ومتجددة ومتطورة.

كيفية تنظيم العلاقات الاجتماعية المتجلية بوضوح من خلال عدم المساواة في التعامل مع هذه الموارد، والممارسات اللغوية.

## نظرية غلوطوبوليطيقية

يحتوي هذا الإطار النظري السوسiolساني طرائق مختلفة لطرح المشاكل التي تكشف عن التيارات النظرية المختلفة. إن الطريقة التي وضعها مارسيليبي Jean-Baptiste Marcellesi وفريقه في روان Rouen تدعو إلى نهج سوسiolساني جذري لا يعتمد على المدرسة اللسانية المهيمنة<sup>7</sup> لعقود من الزمن. انطلاقاً من سنة 1980 طور هذا التيار، ضمن نهج السوسiolساني العام، ما يسمى بالنظرية الغلوطوبوليطيقية Glottopolitique، أي التحليل البديل للسياسات اللغوية. هذه النظرية مهمة خصوصاً بالنسبة للمشروع الذي يجمعنا هنا اليوم، لأنه يسمح بإدماج الفواعل والهيئات الغلوطوبوليطيقية في التحليل. ويرى المفهوم الكلاسيكي للسياسات اللغوية أن هذه السياسات لا تُنتج إلا من قبل المؤسسات (الدول والحكومات) وأنها محمية بالقوانين.

بالإضافة إلى المؤسسات والمنظمات الجماعية (التي نسميها الهيئات)، يوجد في تحليل الغلوطوبوليطيقي فواعل غلوطوبوليطيقيون مُمثلين بالأفراد والمواطنين والمواطنات، الذين هم جميعاً جهات غلوطوبوليطيقية الفاعلة. هؤلاء الفواعل ينفذون السياسات اللغوية، إما بتعزيز السياسات اللغوية العامة التي تقترحها السلطات أو تفرضها، أو بتغييرها، أو بانتقادها وتحديها أحياناً. والملاحظ، على سبيل المثال، أن هناك مقاومة في بعض الأسر للأيديولوجيات اللغوية السائدة. هذه المقاومة الغلوطوبوليطيقية تؤدي بهم إلى نقل موارد لغتهم لأبنائهم على الرغم من الضغوط الاجتماعية المعادية التي يتعرضون لها. هذا الأمر يعطينا مثلاً توضيحياً للدور الذي يمكن أن يقوم به الفواعل الغلوطوبوليطيقيون، لامتلاكهم إرادة لممارسة خاصة، لها علاقة بحوافز مختلفة، من غير أن تكون نابعة عن نوع من الوعي أو التفكير السياسي.

<sup>7</sup> [هامش من المترجم] هذا التوجه هو قطيعة جذرية مع اللسانيات المحايدة التي تدرس اللغة باعتبارها نظاماً قاراً ومتجانساً وكلياً.

قد يأخذ هذا الأمر شكل اللامبالاة أو الوعي الغلوطوبوليطيقي الحقيقي أو التحدي للنظام اللغوي المهيمن. لهذا السبب نجد في بعض العائلات عمليات النقل اللغوي غير متوقعة، تختلف أحيانا عن الأيديولوجيات المهيمنة وتتعارض معها. يمكن هذا الأمر من قياس المكانة الهامة للفواعل الغلوطوبوليطيقيين وأهمية العلاقات بين السلطات والفواعل الذين يحدّدون، بقسط كبير، نقل أو عدم نقل الموارد اللغوية داخل أسر مهاجرة أو أسر غير مهاجرة.

### الهيمنة، من المفهوم إلى النتائج

إن المفهوم المفتاحي الخاص بالمجال الذي يشغلنا، والمستخدم في حقل الفلسفة السياسية، هو مفهوم الهيمنة الذي نظّر له أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci ونقله مارسيليزي إلى السوسiolسانيات. يمكن هذا المفهوم من إدراك جملة من السلوكيات البشرية التي لا يمكن أن تحصل إلا بانخراط المهيمن عليهم في نسق الهيمنة المُسلطة عليهم. في الواقع، يستطيع وعي حالة الهيمنة من قبل المهيمن عليه، أن يؤدي إلى شكل من أشكال الرفض، بل وحتى الاحتجاج الذي يكون أحيانا داخل حيز الأسرة، حينما تكون هيمنة الممارسة قوية. مصلحة المهيمنين هي إقناع المهيمن عليهم أن تنظم المجتمع عادل وطبيعي، وأنه لا وجود لبديل لحالة الهيمنة، كأن يُحتجّ لهذا الأمر بأن بعض اللغات هي بطبيعتها أرفع من اللغات الأخرى. هذه هي الطريقة التي تتم بها الهيمنة عموما، لاسيما حينما تشارك مؤسسات الدولة في تأسيسها عن طريق الخطابات ووسائل الإعلام والمدرسة. مازال الاعتقاد سائدا في جميع بلدان العالم تقريبا، [مثلا هو الأمر] في فرنسا كما في الجزائر، بوجود تفوق لبعض اللغات على لغات أخرى، وما زلنا نشجع ونروج، إراديا أو لا إراديا، لفكرة عدم فاعلية اللهجات الشعبية، بل و"عدم نقائها".<sup>8</sup> المفارقات هي أن بعض المهيمن عليهم يأخذون بهذا الاعتقاد، من خلال رفض

---

<sup>8</sup> [هامش من المترجم] هذا الاعتقاد يفرق إيديولوجيا بين اللغة واللهجة، من غير سوق لدليل واحد على الاختلاف بين هذين السّنين. فالتفريق اصطناعي واعتباطي في أساسه وليس علميا البتة، لأنه لا يخرج عن الإنتاج الثقافي والإيديولوجي للمفاهيم. كما أن هذا التفريق مصاحب بالاعتقاد أن اللغة، عكس اللهجة، نقية وخالصة، على الرغم من عدم وجود لغة— نظريا —لم تتأثر بلغة أخرى ولم تقتصر مفردات وتعبيرات من غيرها. يمكن أن نفترض استثناء نظريا لهذه القاعدة بالمجموعات

لغاتهم، ذلك أنهم يأملون في الاستفادة منه ("الاندماج" الجيد، والنجاح الأكاديمي والاجتماعي الأفضل لأطفالهم). هذا الأمر يسلط الضوء على آثار الهيمنة، التي تسمح، استنادا إلى بعض التمثلات، بتوجيه السلوك اللغوي للأفراد والمجتمعات وتشكيله. هذا الشكل من السلطة هو الذي ندعوه هيمنة لأنه يحظى بالموافقة ويصبح مع الوقت لا شعوريا<sup>9</sup>.

من أجل تحقيق هذه الهيمنة، يتم استخدام الأيديولوجيات التي هي نسق فكري مؤسس قصد فرض نظام ما للعالم، والتي تشتغل على أنها مجموعة من المعتقدات الاجتماعية أو اللغوية على سبيل المثال).

بعض الناس يدفعون إلى الاعتقاد بوجود لغات "الأم" « Maternelles » ومتكلمين "أصليين" أو "سليقيين" « Natifs »، و"أخطاء" حقيقية وأخرى غير حقيقية. وهناك أيضا اعتقاد آخر يقول بوجود تحديد بيولوجي لاكتساب اللغات، كما هو الأمر عند اعتبار الطفل مبرمجا بيولوجيا للحصول على لغة أمه، وهو الاعتقاد الذي أعطى مصطلح "لغة الأم" الذي لا يمكن أن يعتبر مفهوما ولكن تصورا غامضا. هذا التصور يلغي حقيقة قدرة الفرد، بالضرورة، على تحصيل جميع اللغات الموجودة في مكان يحل فيه إذا كان لا يعرف أي لغة من قبل. إذن إن مفهوم "لغة الأم" يشير إلى الاعتقاد السائد بأن دور المرأة يقتصر أساسا على تربية الأطفال وأن الأطفال يتعلمون اللغات مع/من أمهاتهم وليس مع/من آبائهم، كما أنه يشير إلى التقسيم المتوارث عن الأسلاف

---

الإنسانية التي لم تختلط بغيرها، غير أن هذه المجموعات في الغالب ما تملك سننا واحدا يمكن أن ندعوه لغة كما يمكن أن ندعوه لهجة، أما إذا امتلكت أكثر من نظام لغوي واحد، فلا مناص من الاحتكاك إذ ذاك بين هذه الأنظمة ولا وجود بالتالي للاستثناء بالضرورة. ثم إنه لا يمكننا أن نتحدث عن نظام مثل هذا إلا نظريا، لأننا نحتاج لأن نتعامل معه لندرسه وفي هذه الحالة نُعرضه لإمكانية الاحتكاك بغيره وبالتالي ضرورة أو على الأقل إمكانية التأثير به. وفي هذه الحالة لا يكون هذا المثال الاستثنائي حجة.

<sup>9</sup> [هامش من المترجم] عدم الشعور بالهيمنة ينقل هذه الهيمنة من كونها لاشعورية إلى كونها طبيعية. قد يدفع هذا المهيمن عليه إلى الدفاع عن منظومة الهيمنة المُسلطة عليه، كما هو الحال أحيانا في الأنظمة الديكتاتورية أو الاستعمارية. لقد تفطن ابن خلدون لهذا الشعور عند تعرضه لما أسماه ولوع المغلوب بتقليد الغالب<sup>(1)</sup>، وتحدث عنه ملك بن نبي عند شرحه القابلية للاستعمار<sup>(2)</sup>، يُنظر:

<sup>(1)</sup> عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق حامد الطاهر، دار الفجر للتراث، ط1، 1994، ص.192.  
<sup>(2)</sup> Bennabi, M. (1954) *Vocation de l'Islam*, Paris: Seuil.

للعمل الذي يحدد عمل الرجال خارج البيت، ما يجعلهم معنيين بشكل أقل بتعلم الأطفال اللغات، بالتالي لا تكون هناك إمكانية لوجود لغات "أبوية". إذن خلافا للمعرفة التي تقوم على التجربة، تتميز المعتقدات السائدة بلاعقلانية، ما يجعل من الصعب تغييرها. وفي مجال اللغات، نحن نعيش حتى الآن عصر المعتقدات، حيث أن مقاومة الاعتراض عليها قوية على الرغم من وجود العديد من الأعمال العلمية التي تسمح بالنظر إلى اللغات بشكل مختلف. يجب أن يؤخذ هذا الأمر في الحسبان من أجل التمكن من فهم نقل ممارسات اللغات في الأسر بشكل صحيح.

واحدة من المفاهيم المركزية لتحليل حصول الهيمنة وترسخ المعتقدات هو الازدواجية اللغوية Diglossie التي تعني وضع تراتبية للموارد اللغوية المأخوذة من تراتبية المجتمعات التي هي عناصر بنائها وانعكاسها. بهذا تُرتّب الازدواجية اللغوية اللغات وفقا لما نعتقده حول فائدها وقيمتها وحظوتها وفعاليتها أو عدم فعاليتها... من خلال السمات التمثيلية للموارد اللغوية، لا تعكس الازدواجية اللغوية تنظيما تراتبيا للغة فقط، ولكن تراتبا اجتماعيا على وجه الخصوص، حيث تكون المجموعات المهيمنة في الجزء العلوي للازدواجية بينما تكون المجموعات المهيمن عليها، والتي تتعرض لعدم المساواة (اللغوية والاجتماعية بشكل عام)، في أسفل سلّم هذه الازدواجية. نجد في الجزء السفلي من هذا السلّم اللهجات الشعبية واللهجات الريفية والممارسات الشفوية واللهجات الشبابية، أما في الأعلى فنجد اللغات المكتوبة، واللغات المعيارية/الموحّدة، واللغات الحضرية، واللغات الأرستقراطية أو البرجوازية، واللغات الكلاسيكية. يعكس هذا التصنيف هيمنة العالم الحضري على العالم الريفي، وأولوية المرجعيات الكلاسيكية على حساب إبداعية الشباب، وهيمنة اللغات المكتوبة على اللغات الشفوية. إن احتقار الفرد للغته، والتي تفاقمت بفعل "عقدة الهيمنة" (أو بالأحرى "عقدة المهيمن عليه")، و"كره الذات"، أو الشعور بانعدام الأمن اللغوي، يجعل نقلها، ولا سيما داخل الخلية الأسرية، صعباً، لأنها ليست ذات قيمة اجتماعية.<sup>10</sup>

<sup>10</sup> [هامش من المترجم] انعدام أو قلة قيمة لغة الفرد ليست حقيقة كامنة في هذه اللغة وإنما هي ناتجة عن التمثل الفردي و/أو الجمعي والموقف العدائي أو السلبي تجاهها.

## أهمية التمثلات

كل هذا يقودنا إلى مسألة التمثلات السوسiolسانية، التي تم استعارتها جزئياً من علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التنموية. يمكن تعريف التمثلات الاجتماعية عموماً، والتمثلات السوسiolسانية على وجه الخصوص، بأنها معرفة تلقائية و/أو معيّمة اجتماعياً تشمل، بعيداً عن المعارف الفعلية والتجريبية، المعتقدات التي تلقاها الأفراد والتي يعبرون بها عن لغاتهم ومواردها اللغوية. وهذا تشير التمثلات ببساطة إلى ما يظنه الناس بخصوص لغاتهم، وكيفية تعريفها وتصنيفها (اللغة واللهجة...) وتشمل أيضاً الصور التي ينشئون حولها والتقويمات التي يقومون بها إزاءها. فهل هم متعلقون بها أم لا؟ وما هي أسباب هذا التعلق أو عدمه؟... من بين المعتقدات والصور النمطية التي نعبّر بها عن بعض اللغات المحتقرة نجد، على سبيل المثال، الغياب المفترض للنحو أو الكتابة.

بعد نصف قرن من الدراسات السوسiolسانية، أصبحت مسألة التمثل قضية مركزية وأصبحنا نعلم أن لهذه التمثلات قوة فاعلة، أي أنها تحدّد بشدة السلوك السوسiolساني للأفراد. إن معتقداتهم ومعرفتهم توجّه بشكل عميق ما يفعلونه بمواردهم اللغوية، بما في ذلك تلك التي ينقلونها لغيرهم، وتلك التي يعلمونها، وتلك التي يتعلمونها، وتلك التي يمارسونها، سواء بشكل فاعل عند الإنتاج أو فقط عند الاستقبال. إن دراسة مسألة نقل اللغات في الأسر، يؤدي بالضرورة إلى الدراسة المعمّقة لمسألة التمثلات لكل فاعل من الفواعل الغلوتوبوليطيقيين في الأسرة والبيئة الماكروسوسiolسانية، لأن هذا ما يحدد بشكل جوهري ما يحدث فعلاً.

## عمليات النقل اللغوي والممارسات اللغوية: الاكتساب والتعلّم

إن الحديث عن النقل اللغوي يحملنا بالضرورة إلى الإحالة إلى كلّ من المرسلين (الناقلين) والمستقبلين (المنقول إليهم) ويحملنا أيضاً إلى تبني مفهوم التحصيل. يميز الاتجاه العام في السوسiolسانيات وتعليمية اللغات بين نوعين رئيسيين من التحصيل (أو الامتلاك)، التّحصيل بالاكتساب والتحصيل بالتعلّم. ويشير التحصيل بالاكتساب إلى عملية التحصيل عن طريق الاندماج الاجتماعي العفوي، في البيئة الاجتماعية أو في

البيئة الأسرية. إن البيئة الأسرية، على سبيل المثال، تسمح للأفراد باستيعاب الموارد اللغوية بشكل تلقائي، دون الاستفادة من أي تعليم- تعلم<sup>11</sup> للغة، وبالاعتماد على قدرة خارقة على تحصيل الموارد اللغوية الكثيرة طيلة حياتهم. هذه القدرة على التّحصيل اللغوي هي أكبر وأكثر دينامية بين الشباب وتقل مع مرور الوقت عند البالغين بسبب انخفاض النجاعة المعرفية.

أحد الأمثلة المعروفة الخاصّة بالنقل الأسري للغة في فرنسا هو تحصيل لغة الأجداد من قبل الأحفاد، وهو نقل يقفز على جيل بأكمله. إنّ الأجداد، مهاجرين كانوا أو سكانا أصليين، والذين يستخدمون ما يسمى باللّهجات الإقليمية، هم في الغالب مستخدمون عفويون للغة الأسرية واللغة الاجتماعية. إنّ اللغة البروفانسية (أوالبروفنسالية) واللغة الإيطالية، على سبيل المثال، هما اللغتان اللتان كانتا أكثر استخداما في منطقة بروفانس من قبل المتكلمين العفويين<sup>12</sup> قبل الوصول المتأخر للغة الفرنسية التي فرضت نفسها في المدرسة وأيضاً قبل ظهور سياسة فرنسية تدفع الآباء لتنشئة أطفالهم باللغة الفرنسية.

تدفع التمثلات السوسiolسانية كثيراً من الناس إلى الاعتقاد بأن اللّغات العائلية، مثل اللغة الجزائرية بالنسبة للمهاجرين الجزائريين في فرنسا أو اللغة البروفانسية بالنسبة للأشخاص المنحدرين من بروفانس، مُتجاوزةٌ وعفى عليها الزمن. ويفضل الأفراد المعنيون بهذه التمثلات، في كثير من الأحيان، استخدام الفرنسية بدلاً من لغتهم

---

<sup>11</sup> [هامش من المترجم] تُفضّل التعليمية حالياً استعمال صيغة التعليم-التعلم على استعمال صيغة التعليم والتعلم وهذا لتبيان ارتباط عمل المعلم وعمل المتعلم واستراتيجيتهما ارتباطاً عضوياً بنوع من الشراكة المعرفية يحددها العقد التعليمي. هذا التوجه مختلف عن التصور الكلاسيكي الذي كان ينظر إلى العملية التعليمية عموماً وفق منظار تراثي يكون فيه المُعلِّم (الرسول، الأب، القائد، القدوة، الملمهم...) المالك للقدرة (السلطة) والمعرفة والناقل لها بشكل قسري من غير مراعاة لميول المتعلم، وأحياناً قدراته، فيُخضع المتعلم لما هو مُقرّر خارج إرادته وحوافزه، ليكون في الأخير بمثابة خزان يُحشأ بالمعارف أو اسفنجية دورها أن تمتص بلا نقاش كل ما يقوله المعلم. لذا كان التعليم التقليدي مبنياً في أساسه على الحفظ والاستظهار عموماً، ورفض النقاش في أحيان كثيرة.

<sup>12</sup> [هامش من المترجم] العفوية هنا استعمالية وليست سلوكية أو أخلاقية. هذا يعني أن المتكلم العفوي هو عفوي في استعمال لغة ما وتنويعها ما وسنّها من غير أن يخضع بشكل واع لسلطة تجبره على استعمالها. إذن إن موضوع (مادة) العفوية هو اللغة ومكوناتها وأشكالها وليس ما تُعبر عنه اللغة.

الأولى. إنَّ التمثّلات والمعتقدات السلبية حول مواردهم اللغوية الخاصة تدفعهم إلى اعتماد تصنيفاتهم<sup>13</sup> وفقاً لنظام يُفترض (ويُزعم) أنه ذو منفعة اجتماعية تحظى بالقبول عموماً وبالإجماع بأغلبية ساحقة. هكذا تصبح الفرنسية مثلاً لغة النجاح الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ويُنظر إلى لغات المنشأ على أنها غير قادرة على القيام بهذا الدور. إن الجيل الثاني من هؤلاء المتكلمين، أي الآباء الذين تَنَشَّؤوا في الغالب بالفرنسية، يربي بدوره الأبناء بالفرنسية. ومع هذا، فإن هؤلاء الأبناء يسمعون أجدادهم يستعملون لغاتهم الأصلية سواء في حالة الإرسال أو حالة التلقي. وعلى الرغم من الاحتياطات التي يتخذها بعض الأجداد لتشفير تبادلاتهم الخاصة ومحاولة منع أحفادهم من فهم أحاديثهم على وجه الخصوص، فإن هؤلاء الأحفاد يتمكنون من تعلم هذه اللغات تلقائياً ببساطة عن طريق الاندماج في تفاعلات أجدادهم. هذا يدل على أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه الأجداد باعتبارهم فواعل غلوطوبوليطيقيين. هذا التحصيل عن طريق الاندماج الكلي والعفوي أساسي لأنه يملك آثاراً ملحوظة في عملية الاكتساب.

إذن فمن الملائم أن نتحدث عن اللغات العائلية، أو اللغات الأولى أو لغات التنشئة الاجتماعية الأولى، بدلاً من لغات "الأم". بهذا نستطيع أن نقول إنه: ليس للأطفال "لغات أم"، ولكن لغات البيئة الاجتماعية. إن أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار هو من الأهمية بمكان لأنه يحدد، جزئياً، ممارسات هؤلاء الأطفال. فتعريض الأطفال للغات الأولى أو اللغة الثانية، أو إلى لغات الأسر أو لغات الجيران، أو إلى اللغات المهيمنة في بيئتهم الاجتماعية، فضلاً عن تلك التي يتم تلقيها من خلال الإنترنت والقنوات الفضائية، يسهم إلى حد كبير في التحصيل اللغوي. في الجزائر، حيث الربط بالهوائيات المقعرة كبير جداً، يسمح التعرض المستديم للتلفزيون بتحصيل اللغة الفرنسية أو أنواع مختلفة من العربية (اللهجية أو "الفصحى") من خلال أدوات الحياة الاجتماعية، مثل الأخبار التلفزيونية، والأفلام، والموسيقى، والرسوم المتحركة، والبرامج الرياضية...

<sup>13</sup> [هامش من المترجم] التصنيف خاص بقيمة اللغات وأولويات استعمال إحداها أو بعضها وسياقات هذه الاستعمالات.

ينبغي ألا نهمّل في هذا السياق كفاءة التلقي لأنه غالباً ما يُعتقد خطأً أن المهارات اللغوية لا تتوفر إلا عندما يكون المرء قادراً على إنتاج الرسائل. في الواقع، كون المتكلم كفواً على صعيد اللغة لا يعني فقط امتلاكه لمهارات الإنتاج، ولكن يعني أيضاً فهم ما يُقال أو ما يُكتب. ولجميع الأفراد مهارات استقبال تفوق مهارات الإنتاج، وهذا ببساطة لأنه إضافة إلى أسباب أخرى فإنّ فهم الآخرين يقتضي أن يفهم الإنسان الأشياء التي لم يقلّها هو نفسه. لقد أظهرت الكثير من الدراسات السوسiolسانية أن لدينا القدرة على فهم اللغات التي لا نشعر فيها بالاعتدال على إنتاج الرسائل بسبب انعدام الأمن اللغوي الذي يدفعنا إلى عدم الجرأة على استعمالها، إضافة إلى أسباب أخرى، وكذا بسبب النتائج المترتبة عن المعتقدات الخاصة بمعايير اللغة. إن كفاءة الاستقبال هي الشرط المسبق واللازم للتفعيل المحتمل للإنتاج بسبب المكنة المكتسبة.

إن فهم الرسائل الموجهة للأطفال يجعلهم قادرين على امتلاك ممارسة خاصة بالتعدّد اللّغوي في المشاهدة كما في الكتابة، من خلال أنظمة مقارنة والأنشطة الذهنية للتعدد اللغوي والعناصر المحفّزة. يصير هذا الأمر أكثر يسراً من خلال الكفاءات اللغوية المكتسبة في بعض التنوعات اللغوية التي لا تُرى أو لا تُسمع مع أنها موجودة وتُسهّل تلقي لغات أخرى.

إذا كان مصطلح التعلّم يشير إلى تحصيل الموارد اللّغوية من خلال أنظمة تعليمية وتربوية صريحة، فإنه يمكن لطريقتي تحصيل الموارد اللغوية (الاكتساب والتعلّم)، أن تكمل إحداها الأخرى.

لا تُشير كفاءة التعدّد اللّغوي، التي هي في صلب انشغالات الإطار الأوروبي المشترك لمرجعيات اللغات (CECRL)، وفقاً لدانييل كوست Daniel Coste ودانيال مور Danièle Moore وجوفنياف زارات Genevieve Zarate، إلى كفاءة يمتلكها متكلمون متعدّدو-أحادي اللغة Pluri-monolingues، وإنما لمتكلمين يمتلكون كفاءة شاملة يجمعون مواردهم لإنتاج ملفوظاتهم وتحقيق ما يُعرف الآن في تعليمية اللّغات باسم "البريكولاج" أو "الترقيع". العديد من اللغات قد اقترضت مصطلح البريكولاج، الذي أصبح تقريباً مفهوماً يشير إلى هذا المزيج من السُنن (جمع سَنَن) التي يستثمرها متكلمون مُتعدّدو اللغات لإنتاج رسائلهم. وبسبب احتكاك اللغات ولأن هؤلاء المتكلمين

يملكون عدة تنويعات لغوية، فإنهم يُعَمِّقُونَ، من خلال ممارساتها، التأثير الذي يمكن أن تقوم به لغة ما على لغة أخرى.

خلافا للاعتقاد السائد، تعني الكفاءة اللغوية ألا يكون متكلم ثنائي/ثلاثي/رباعي اللغات، متكلم "كاملا" و"مثاليا" يمكن مقارنته بالمتكلم "سليقي" « Natif » في لغات مختلفة. وبمجرد قدرة المرء على إقامة العلاقات الإنسانية بالموارد اللغوية الأخرى، غير موارد اللغة السليقية، فإنه سيكون متكلمًا متعدد اللغات Plurilingue. سأقصر عليكم حكاية على سبيل المثال: لقد قمت في أحد الأيام بسفر في الصباح الباكر لمدة ساعة واحدة بالسيارة بين مستغانم ومطار وهران مع سائق من جامعة مستغانم. تحدثنا معا، فاستعمل هو الدارجة الجزائرية مع قليل من الفرنسية، واستعملت أنا الفرنسية مع قليل من الدارجة الجزائرية، وتمكنا من قضاء ساعة رائعة معا. شرح لي، على سبيل المثال، حينما كنا نشاهد السيارات القديمة، أشياء عن لوحات ترقيم السيارات الجزائرية، فقال: "هنا في لالجزيري، نيميرو ماتريكياسيون كاين ذات نيسانس تا فواتير"<sup>14</sup>، ففهمته جيدا.

لاحتكاك اللغة الذي يفرض نفسه في بيئة متعددة اللغات تأثيرات على اللغات الموجودة في هذه البيئة بفعل تأثير بعضها في بعض وتأويل بعضها للبعض سواء على المستوى الصرفي-التركيبى، أو المعجمي، أو الصوتي Phonologique، أو البراغماتي. من الضروري في الدراسات التي تُعنى بنقل لغات الأسرة، تحديد الممارسات اللغوية العائلية دون رفض نتائج احتكاك اللغات التي يمكن أن تكون حاسمة كما بين هذا على بن شريف محمد زكرياء في أطروحته المناقشة عام 2009 في تلمسان<sup>15</sup>.

لقد أظهرت أعمال لوك بيشلي Luc Biichlé أن فرنسا تشهد ظهور تنويعات فرنسية جديدة لـ"الدارجة" (اللغة العربية المغربية الشعبية، التي تسمى أيضا "اللهجية")، يستخدمها المغاربة الذين يوظفون كلمات وتعبيرات نابغة من تنويعاتهم اللهجية

<sup>14</sup> « hna fi l'Algérie, niméro matriculation kayn date naissance ta voiture »

الترجمة الحرفية للجملة هي: "هنا في الجزائر، في لوحة ترقيم السيارات، توجد سنة ميلاد السيارة" أي سنة صنعها.

<sup>15</sup> Ali-Bencherif, M. Z. (2009) *L'alternance codique arabe dialectal/français dans des conversations bilingues de locuteurs algériens immigrés/non-immigrés*, thèse de doctorat en linguistique. Université Abou Bakr BELKAÏD de Tlemcen (Algérie) p.451.

الأصلية (المغربية، الجزائرية، التونسية). هؤلاء المتكلمون يخلطون بين هذه التنويعات مع غلبة طفيفة للعربية الجزائرية بسبب العدد الكبير للجزائريين الذين يعيشون في الأحياء التي أُخضعت للملاحظة والدراسة. أُنْتَج الاحتكاك بين هذه التنوعات المختلفة للغة العربية المغربية طريقةً خاصة في الحديث باللغات الأسرية، ومختلفة عن تلك التي تُستخدم في بلدانهم الأصلية.

غالبا ما يحافظ المهاجرون، وأبناؤهم على روابط قوية مع مجتمعات الانطلاق التي هاجروا منها. تتجلى هذه الروابط اليوم في الوسائل التكنولوجية الحديثة للاتصال مثل الشبكات الاجتماعية والأنترنت وسكايب ومنتديات المناقشة... إنها تساعد على تعزيز حياة المغتربين من خلال البقاء على اتصال مع المهاجرين الآخرين ومع المجموعات التي تملك نفس الأصول أو التحادث والمراسلة مع بعضهم البعض مع الوعي بأنهم ينتمون إلى نفس المجموعة البشرية. هذا التواصل المستمر على وسائل خاصة يُمْكِن أيضا من نقل الموارد اللغوية وتغييرها.

لقد أظهرت الدراسات أيضا أن لغات المنشأ اختفت من الممارسة في الأسر التي هاجرت في منتصف القرن العشرين، بعد ثلاثة أجيال تقريبا، بسبب عدم وجود احتكاك مع بلدان الانطلاق والبعد الجغرافي خصوصا. بالمقابل، حافظ الأفراد الذين هاجروا مؤخرا على ممارسة لغاتهم الأولى، لأن صلاتهم مع بلدان المنشأ ظلت قوية.

لمواردنا اللغوية وظائف رمزية ووظائف تواصلية، فهي ليست محصورة فقط في إيصال المعلومات أو نقلها. تُمْكِننا هذه الموارد أيضا من التعبير عن ذاتنا (بقول من نكون) ومن إقامة علاقات خاصة مع الآخرين لبناء مجموعة من الأفراد يشتركون في الشعور بالانتماء الجمعي. إن إعلان الفرد عن كونه متحدثا بلغة ما باستخدام كلمات قليلة أو بعض المُحدِّدات اللغوية يُمْكِن من الإشارة إلى هويته. في الغالب ما نلاحظ أنه لا تزال هناك استخدامات رمزية في الأسر المهاجرة، والتي هي موضوعنا هنا، أو تلك التي لها وجود محلي بامتلاك لغات إقليمية، حتى لو كان تواصلها بلغاتها الأصلية قليلا أو منعدم الوجود. عند دراستها الممارسات اللغوية في الأسر المهاجرة، وخاصة تلك المنحدرة من أصل مغربي، وعند مقابلتها للشباب الجزائري في غرونوبل Grenoble، أشارت جاكلين بيليز Jacqueline Billiez إلى صياغة معبّرة جدا لشباب

قال إن لغته هي العربية من غير أن يكون بإمكانه الحديث بها. هذا كله يوضح القيمة الرمزية للغة من خلال التعبير عن انتماء أولويّ لمجموعة بشرية ما، حتى وإن كانت الهوية تعددية. على نفس المنوال، قال الفيلسوف الجزائري الفرنسي جاك دريدا: "لا أملك إلا لغة واحدة وهي ليست لي" للإشارة أنه ليس لديه إلا لغة واحدة للتواصل (اللغة الفرنسية) ولكنها ليست اللغة التي يريد أن يعرف نفسه من خلالها باعتباره منتما إلى مجموعة ثقافية ولغوية. وربما كان يشير إلى اللغة العربية المغاربية التي كانت أيضا اللغة الرئيسية لسفارديم<sup>16</sup> المغرب إلى أن حل الاستعمار الفرنسي وجاء قانون "التجنيس" الفرنسي الخاص باليهود في الجزائر عام 1870. كثير من الناس يعبرون بهذا الشكل بغرض استعراض الهوية اللغوية والثقافية، وهذا يعزز الوظيفة الرمزية للغة، التي هي ليست وسيلة اتصال فحسب، بل هي أيضا علامة رمزية للانتماء الجماعي.

## الامتدادات في مقابل الانقطاعات

هناك سؤال هام آخر يجب الإجابة عليه أيضا وهو خاص بالامتدادات والانقطاعات بين البيئة السوسيوإسيانية الكبرى (الكلية) والممارسات السوسيوإسيانية الصغرى (الجزئية) داخل المجموعة الأسرية المفهومة بأوسع معانها، أو داخل مجموعة مجاورة.

الأيدولوجية المهيمنة في كثير من المجتمعات، مثل الجزائر أو فرنسا، هي إيديولوجية الأحادية اللغوية المعيارية التي ترى أن المجتمع البشري المثالي يجب أن تكون له لغة واحدة ومشتركة، ويجب أن يكون الأفراد الذين يؤلفونه أحاديي اللغة، فيتحدثون اللغة نفسها ويحترمون المعيار نفسه. هذا البعد الأحادي هو المحور الرئيسي للسياسة اللغوية والهوية الوطنية في فرنسا، حيث يجب على جميع الأفراد الذين

<sup>16</sup> [هامش من المترجم] يهود شمال إفريقيا وآسيا الصغرى الذين يُطلق عليهم عادة اليهود الشرقيون، والذين طرد أغلبهم من شبه الجزيرة الإيبيرية. والكلمة مشتقة من المفردة العبرية 7750 (سيفاراد) المُحيلة عند البعض لإحدى مدن آسيا الوسطى وعند البعض الآخر لإسبانيا. يُنظر: دعاء فريد، الصورة الذهنية للمجتمع الإسرائيلي، أطلس للنشر والإنتاج والإعلام، 206، ص 59. سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل والأعراق: هموم الأقليات في العالم العربي، الجزء الأول، دار ابن رشد، 2018، ص 131.

يعيشون في هذا البلد ألا يتكلموا إلا باللغة الفرنسية، ليس هذا فحسب، بل ألا يتحدثوا إلا بها دون غيرها، مع تجنب استخدام لغات أخرى، ولا سيما اللغات الإقليمية أو اللغات المنحدرة من المهاجرين. بالنسبة لمصممي هذه الأيديولوجية اللغوية المركزية والمهيمنة، فإن الطريقة الوحيدة للتحدث باللغة جيدا هي استخدام اللغة المعيارية. هذا التصور منتشر على نطاق واسع في بعض المجتمعات، وله آثار كبيرة في الممارسات الميكروسوسiolسانية وآثاره في الامتداد (بين البيئة السوسiolسانية والممارسة السوسiolسانية) تدفع لتطبيق هذه الأيديولوجية داخل الأسر. إن التمييز بين الناس لأنهم يتكلمون لغة أخرى أو لأنهم يتكلمون بشكل مختلف، ومنعهم من استخدام هذه اللغات في مواقف اجتماعية مختلفة هو شكل من أشكال الغلوطوفوبيا أو الرهاب اللغوي، كما أن تحديد الارتقاء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والمالي من خلال الاستخدام الخاص والمعياري للغة واحدة هو شكل آخر لها. هذه الأيديولوجية والسلوكيات التي تفضي إليها هي المهيمنة عموما. للرهاب اللغوي (الغلوطوفوبيا) وجه معكوس هو الوله اللغوي (أو الغلوطوفيليا): فإذا كانت هناك لغات نرفضها فهناك لغات تتعلق بها، والعكس بالعكس، إذ إن للإفراط في عملية التعلق بالموارد اللغوية صنو مرتبط به يتمثل في رفض موارد أخرى. قد يؤدي هذا الرهاب وهذا الوله أحيانا إلى ما يمكن أن يطلق عليه بالهوس اللغوي (أو غلوطومانيا) Glottomanie الذي هو نوع من أمراض التعلق المفرط بإحدى اللغات أو أكثر، والذي يصل أحيانا إلى حدّ التعصب. هؤلاء "الأوصياء على المعبد والحراس له" يبحثون باستمرار في الإنترنت أو في وسائل الإعلام عن الأشخاص الذين "يرتكبون أخطاء لغوية"، فيضطهدونهم، ويشتمونهم أو يحتقرونهم. يدعو الباحثون الأنجلوسكسونيون هذا النوع من الأفراد، "نازيي القواعد" «Grammar nazis»، مشيرين إلى تعصبهم وعدم تسامحهم. إن اللغة مقدسة بالنسبة لمهوسي اللغة ويجب ألا تخضع للتنوع ولا للتغيير ولا للتأثر ("التلوث").

علاوة على هذا، وفي مواجهة الامتداد، هناك حالات انقطاع عند الأسر والأفراد الذين لديهم استراتيجيات مقاومة للتغيير والتنوع والتأثير. العديد من الشهادات والدراسات الأخيرة توضح هذه الانقطاعات. فقد أظهرت، على سبيل المثال، الدراسات

الاستقصائية، كدراسة غاييل فيولو Gaëlle Violo، أن بعض العائلات في البروطان Bretagne واصلت حتى اليوم نقل اللغة البروطانية (اللغة السيلتية)، التي هي اللغة الأصلية وليس اللغة الفرنسية، على الرغم من أنه تم منذ أجيال بذل جهود كثيرة لثني العائلات عن القيام بذلك، بما في ذلك التشويه المطرد لهذه اللغة بالادعاء أنها متخلفة وغير مجدية. إذا كان جزء كبير من أهل البروطان قد رضخ لهذه السياسية الأحادية بالتخلي عن ممارسة لغته الأصلية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال، فإن البعض ما لا يزال يتحدث في أسرهِ بلغته الأصلية. هذا الشكل من الانقطاع يبيّن لنا الطريقة التي تقاوم بها بعض الأسر تأثيرات الهيمنة الأيديولوجية اللغوية المسيطرة. هناك مثال آخر مأخوذ من بيوغرافية لسانية<sup>17</sup> جمعتهما ستيفاني كليرك Stéphanie Clerc قال فيها مواطن من بروفانس Provence أن عمته مُنعت من التحدث في المدرسة باللغة البروفانسية provençal التي هي لغتها الأولى. بل ولقد طلب منها معلومها التوقف عن الحديث باللغة البروفانسية حتى في المنزل، وبهذا دفعوا هذه السيدة وأفرادا آخرين إلى تعزيز استخدامهم للغة البروفانسية والقيام بمعارضة استراتيجيات الهيمنة ومقاومة ما اعتبروه نوعا من الاستبداد اللغوي والثقافي.

على الرغم من قرنين من الإيديولوجية اللغوية الأحادية المهيمنة في فرنسا، إلا أنه ما يزال هناك العديد من الأفراد يمارسون لغاتهم الأصلية، التي تسمى لغات إقليمية أو لغات الهجرة (أنا مثال لهذين الحالتين بتكلمي البروفانسية والإيطالية). إن دراسة هذه الظواهر صعبة إلى حدّ ما، لأن الحالات الدينامية، أسرية كانت أم فردية، تتميز بتغيرات كثيرة وعواملها متعددة. كما تكشف السياقات الأسرية والإقليمية والتاريخية المختلفة عن عوامل فاعلة عديدة ومختلفة.

<sup>17</sup> [هامش من المترجم] البيوغرافية اللسانية هي عمل انعكاسي يعرض المتكلم بفضل كل أو بعض ما يتعلق بتحصيله لُغة ما. وهو يركز حسب مورييل موليني "على قدرة الفرد على سرد العناصر المكوّنة لتجربته اللسانية والثقافية".

Molinié, M. (2006) « Biographie langagière et apprentissage plurilingue », Numéro spécial Recherches et applications, n°39 - *Le français dans le monde, français dans le monde*, Paris, Clé International, p.6.

هناك حاجة إلى دراسات إثنوغرافية وميكروسوسiolسانية عميقة لفهم العوامل الكامنة وراء هذه الحالات اللغوية. في الواقع، إذا استطعنا إيجاد نقاط مشتركة في أسر مختلفة، فإنه بإمكان حالات متباينة للغاية ونقاط اختلاف عديدة أن تترسخ. ويبدو عموماً من الواضح أن التحقيقات الكمية والميكروسوسiolسانية غير كافية.

### مصائر متقاطعة، توماس ودانييلا

على سبيل الاستنتاج، وتوضيحاً لما سبق ذكره، سأخذ مثلاً بالرجوع إلى ميدان آخر يتمثل في دراسة مقارنة حديثة (2015) قامت بها إستيلا كليت Estela Klett في جامعة بيونس أيرس خاصة بنقل اللغة الإسبانية الأرجنتينية للأطفال<sup>18</sup> فقد بينت أن نقل اللغة الأصلية إلى أطفال من نفس الأسرة (الأخ والأخت) لم يتم بنفس الطريقة بسبب تنوع العوامل، والأيدولوجيات اللغوية والسياقات السوسiolثقافية التي حدث فيها هذا النقل. مقتطفات من البيوغرافية اللسانية لأبوي هذين الطفلين الأرجنتينيين ثنائيي اللغة اللذين هاجرا من وطنهما، نحو الولايات المتحدة (بالنسبة للأخ توماس) ونحو البرازيل (بالنسبة للأخت دانييلا)، توضح كيف حصل نقل اللغة الإسبانية في هاتين العائلتين. ففي عائلة توماس نُقلت الإسبانية بشكل ضعيف، ولم يكتسب الأطفال إلا إسبانية بسيطة، مع أن العائلة كانت تعيش في منطقة ميامي، وهي منطقة من الولايات يُتحدث فيها الإسبانية بشكل كبير. فاللغة الإنجليزية هي التي سيطرت وهي التي شكلت أداة التواصل بين أفراد العائلة، في المدرسة وفي بيئتهم الاجتماعية، على الرغم من رغبة الوالدين الأرجنتينيين في التحدث باللغة الإسبانية معهم.

ومن ناحية أخرى، نجحت أسرة دانييلا التي تعيش في البرازيل في نقل اللغة الإسبانية والحفاظ عليها في التواصل داخل الأسرة (على الرغم من أن زوج دانييلا برازيلي) وفي البيئة الاجتماعية للأطفال مع أنها بيئة ناطقة بالبرتغالية، وحيث لا يتحدث

---

<sup>18</sup> Klett, E. « Le poids des représentations dans l'utilisation des langues par des enfants bilingues » dans Blanchet, Ph. (éd.), *Sociolinguistique et éducation. Contributions au repérage du champ avec exemples de diversités linguistiques sur des terrains variés*, Cahiers de Linguistique, 2015, 41-2, p. 41-50.

إلا عدد قليل من الناس الإسبانية. ويمكن تفسير هذا بحصول تفاهم ممكن باستعمال هاتين اللغتين وبالتشابه الصنافي بينهما<sup>19</sup>.

بالنسبة لإستيلا كليت، إن تمثلات الأطفال للغة الإسبانية، وفقا لبيئتهم، هي التي تحدّد الحفاظ على هذه اللّغة أو لا، وهي التي يمكن أن تُنتج سلوكات مختلفة منذ الجيل الثاني عند أفراد الأسرة المهاجرة الواحدة. هناك من جهة تثمين للغة الإسبانية ورغبة في إقامة روابط مع الأرجنتين بالنسبة لأولئك الذين هاجروا إلى البرازيل، في حين نشهد من جهة أخرى عند أطفال الأسر التي هاجرت إلى الولايات المتحدة انخفاضا لقيمة اللغة الإسبانية معزّزين بهذا تمثّلها سلبيا سيرا على ما هو رائج في المجتمع الأمريكي، وقاطعين العلاقة مع البلد الأصلي تأكيدا على مشروع بناء مستقبلهم في الولايات المتحدة الأمريكية.

في الأخير لعل هذا مثال جيد لتوضيح ما يشغلنا هنا.

ترجمة مصطفى علي بن شريف

---

<sup>19</sup> [هامش من المترجم] الانتماء لنفس العائلة اللغوية.